الرحمة المهداة
للصحب في الجهاد والغزوات

إعداد:
عمر بوقمرة

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة، والنعمة المُسدَاة؛ صاحب الخلق العظيم بشهادة رب العالمين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:٤]؛ بعثه ربه رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، لين الجانب لافظا ولا غليظ القلب: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ﴾ [آل عمران:١٥٩]، يكاد يبخع نفسه حزنا وهمّا من شدة حرصه على هداية الخلق: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣]، رؤوف رحيم بالمؤمنين: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨]؛ القائل ﷺ عن بعثته: «إنما بعثت بالرحمة»(١)، وعن نفسه: «إنما أنا رحمة مهداة»(٢)، وعن الخلق: «من لا يرحم لا يرحم»(٣)، و: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»(٤)؛

(١) رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة، كتاب: البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، (٢٥٩٧).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، من حديث أبي هريرة، وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار والطبراني في الصغير، ورجال البزار رجال الصحيح، وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٩٠).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (١٠/ ٥٩٩٧).

(٤) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، (٤/ ١٩٢٣) وقال حديث حسن، وحسنه الألباني في المشكاة، كتاب الآداب، باب الشفقة والرحمة على الخلق، (٤٩٦٨).

بعثه الله فيهم رسولا من أنفُسهم أنفَسَهُم عربا وعجما، وأزكاهم أصلا ومَنْمى، وأرجحهم عقلا وحِلما، وأشدهم بهم رأفة ورحمة، لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ففتح الله به أعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، فصلى الله عليه وسلم تسليما.

والآيات والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة وفيرة يصعب حصرها في هذا التقديم المقتضب، فما فضيلة الرحمة إلا عنوان لرسالته ﷺ، وركيزة من ركائز دعوته التي مارسها ودعا أصحابه إلى التحلي بها، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، لقد كان ﷺ بحق رحمة للعالمين: رحمة بأصحابه ﷺ في السلم والحرب، في الشدة والرخاء، رحمة في التخفيف والترخيص لأمته أجمعين، رحمة للعصاة، رحمة للجهال، رحمة للصغار والصبيان، رحمة للنساء، رحمة للحيوان، رحمة للأعداء الصرحاء. هذا هو وصف النبي ﷺ مع هذه الشميلة، فكيف هي حال المسلمين مع أنفسهم ومع غيرهم؟ لقد قست القلوب، ولقِسَت النفوس، ورفعت الرحمة منها إلا من رحم، فلا الكبير يرحم الصغير، ولا الصغير يرحم ذا الشيبة الكبير، ولا القوي يرحم الضعيف، ولا الغني يرحم الفقير، بل لقد نضبت الرحمة من قلوب كثير من المسلمين؛ حتى أعطى ذلك انطباعا سيئا عن الإسلام وأهله عند جهلة المسلمين فضلا عن أعدائهم الكافرين.

وانطلاقا من هذا الواقع جاء هذا البحث لينير خُلُقا مهما من أخلاق المصطفى ﷺ وفي مرحلة خطيرة (مهمة) من مراحل سيرته العطرة ألا وهي مرحلة الجهاد النبوي، لذلك وقع اختياري على المحور الرابع «الرحمة في سيرة المصطفى ﷺ ورحمته بأمته» وبالذات «رحمته بأصحابه ﷺ» في الغزو والجهاد، وقد اخترت هذا الجزء من سيرته العطرة ﷺ لغاية حجاجية إقناعية فإذا كان ﷺ رحيما بأصحابه في

الغزو والجهاد، وهو أمر يتطلب الحزم والصرامة فمن باب أولى أن يكون رحيما فيما دونه.

هذا أولا ثم إني رأيت تكالبا من قبل الأعداء وقدحا في شخصه ﷺ وما صنيع الصحف الدنماركية والفرنسية عنا ببعيد، فأحببت أن أذب عنه ﷺ، وأعزِّره وأوقِّره بهذا البحث.

سبب اختيار الموضوع:

- نصرة رسولنا الحبيب ﷺ، ورد مطاعن وترهات البغاة من الغربيين، ومن دار في فلكهم، ووصفهم له ﷺ بما هو منزَّه عنه، خاصة فيما يتعلق بسيرته الجهادية.
- حاجة المجتمعات المسلمة المعاصرة الماسّة إلى نشر ثقافة الرحمة، وتمثلها في حياتهم السلوكية العملية، تأسيا بالرحمة المهداة ﷺ.
- أني لم أجد من خص هذا الموضوع ببحث مفرد، وإن كان مبثوثا في كتب الحديث عامة، وكتب السير والشمائل خاصة.

أهمية الموضوع:

إثبات فطرية خلق الرحمة، وتأصلها في نفس رسول الله ﷺ، وحشد الأدلة والشواهد التي يُحتاج إليها في الاستدلال على عظيم رحمته وشمولها، وبيان أثر ذلك في تحصين الأمة من شبه ومطاعن الحاقدين الحاسدين، من الكفار ومن شايعهم من المنافقين الطاعنين في سيرته عموما والجهادية خصوصا، فهو يناسب فئة مهمة يستهدفها المؤتمر؛ وهم الجماهير الغربية وخاصة المثقفين منهم، فالبحث يدخل في باب نصرة الرسول ﷺ والذب عنه.

أهداف البحث:

- الوقوف على تجليات الرحمة في سيرة النبي ﷺ مع أصحابه في الغزو والجهاد، بعدِّه النموذج الأول والقدوة الحسنة في امتثال هذا الخلق العظيم، ورسم صورة واضحة ومتكاملة للنشء المسلم بغرض التأسي والاقتفاء لا التسلي والالتهاء، فما أحوج المسلمين إلى هذه القدوة، لما لها من أثر طيب في حياة المسلمين أفرادا وجماعات، خاصة وقد كثر دعاة القول، وقلّ دعاة القول والفعل، ولله الأمر من بعد ومن قبل.
- الإسهام في بعث وإحياء المفهوم الصحيح لخلق الرحمة الذي افتقده كثير من دعاة المسلمين فما بالك بعوّامهم.
- كشف الآثار السيئة لغياب خلق الرحمة والتحذير منها، انطلاقا من الواقع الذي تعيشه الأمة من تمزق واقتتال وتفرق، وما ذلك إلا لغياب فضيلة الرحمة بينهم.
- الذب عن رسول الله ﷺ وقطع الطريق أمام جهلة المسلمين وأعدائه الحاقدين.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك بالقراءة الواعية لما ورد في كتاب الله، وصح عن رسول الله ﷺ واستنباط ما فيها من لطائف خلق الرحمة عند النبي ﷺ في أحواله عموما، وفي غزواته مع أصحابه خصوصا؛ وأثر ذلك في تأليف قلوبهم وجمع كلمتهم ونصرهم على أعدائهم.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على: مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة.

المقدمة: وفيها أسباب اختيار الموضوع، وأهمية البحث، وأهدافه، ومنهج البحث، وخطته.

التمهيد: وفيه مفهوم الرحمة في اللغة والاصطلاح.

المبحث الأول: الدعاء بالثبات.

المبحث الثاني: التخول بالموعظة والتذكير بما أعد الله للمجاهدين والشهداء.

المبحث الثالث: التخفيف في العبادات (صلاة الخوف أنموذجا).

المبحث الرابع: تأليف قلوب الضعفاء.

المبحث الخامس: في قسمة الغنائم.

المبحث السادس: الرحمة بالعصاة والمذنبين والعفو عنهم.

خاتمة: تضمنت أهم نتائج البحث المتوصل إليها، والتوصيات المقترحة.

التمهيد

في بداية هذه الدراسة لابد من ضبط مصطلح الرحمة؛ لأن البحث كله يدور عليها، وبدون ذلك يصعب التواصل والتوافق مع القارئ، وإقناعه بمظاهر الرحمة المقصودة بالبحث والدراسة.

أ. الرحمة لغة:

تدل مادة (ر ح م) في اللغة على الرِّقة والعطف والرأفة، قال ابن فارس: «الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك رحمة يرحمه إذا رقَّ له وتعطّف عليه، والرُّحْم، والمَرْحمة والرحمة بمعنى»[1]. وقال ابن منظور: «الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه، وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضا، والرحمة المغفرة، وقوله تعالى في وصف القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف:٥٢]، أي فصلناه هاديا وذا رحمة، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١]، أي هو رحمة، لأنه كان سبب إيمانهم. وقال تعالى: ﴿ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد:١٧]، أي أوصى بعضهم بعضا برحمة الضعيف، والتعطف عليه»[2].

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د-ط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، الجزء الثاني، ص٤٩٨.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، د-ط، د-ت، مادة (ر ج م)، ص١٦١١.

ب. الرحمة اصطلاحا:

يعسر في الغالب صياغة مفهوم دقيق للعواطف والانفعالات، ومنها الرحمة، لأنها في الحقيقة تدرك بمظاهرها لا بحقيقتها وكنهها، وعلى الرغم من ذلك فقد عثرت على تعريفات كثيرة لمصطلح الرحمة تلتصق بالمعنى اللغوي؛ بل وتتداخل معه، ولا ضير في ذلك إذ إن علماء المصطلح يشترطون في صياغته بقاء وشائج القربى تشدُّه بمعناه اللغوي، ومن هذه التعريفات: تعريف الراغب الأصْفَهَاني بقوله: «والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل أحيانا في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد، وإذا وُصِف بها الباري، فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة»(١). وعرفها ابن العربي فقال: «حقيقة الرحمة إرادة المنفعة، وإذا ذهبت إرادتها من قلب شقي بإرادة المكروه لغيره»(٢). وقال الكفوي: «الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبا لمن به رقة قلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان»(٣). وقال القرطبي: «الرحمة رقة وحنو يجده الإنسان في نفسه عند رؤية مبتلى، أو صغير، أو ضعيف، يحمله على الإحسان له، واللطف والرفق به، والسعي في كشف ما به»(٤). وقال الشريف الجرجاني: هي إرادة إيصال الخير»(٥). وقيل: «الرحمة هي محبة للمرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رُحِم»(٦). وفي الأخير يمكن مما سبق سبك تعريف جامع للرحمة، فأقول:

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: سيد محمد الكيلاني، د- ط، د- ت، ص١٩١.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير: المُناوي، درا المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩١-١٩٧٢م، الجزء السادس ص٤٢٢.

(٣) الكليات في المصطلحات والفروق اللغوية: الكفوي، قابله: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩ه-١٩٩٨م، ص٤٧١.

(٤) فيض القدير: شرح الجامع الصغير: المناوي، الجزء السادس، ص٤٢٢.

(٥) كتاب التعريفات: الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٨٥م، ص١١٥.

(٦) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: إعداد مجموعة من المختصين، =

«الرحمة رقة في القلب تحمل صاحبها على الإحسان للمرحوم؛ وذلك بجلب المنافع ودرء المفاسد؛ بحسب القدرة والاستطاعة».

= بإشراف: صالح بن عبدالله بن حميد، عبدالرحمن بن ملوّح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، العربية، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨ه/١٩٩٨م، المجلد السادس، ص٢٠٦٢.

المبحث الأول
الدعاء بالثبات

كان من هديه ﷺ أن يدعو لأصحابه بالثبات والنصر والغلبة في المعارك، إذ إن الدعاء من أهم أسباب النصر على الأعداء، وقد بين ﷺ ذلك لأصحابه فقال: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»[(١)]؛ وذلك حين ظن سعد بن أبي وقاص -وهو راوي الحديث- أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبي ﷺ، ومعنى الدعاء: «استدعاء العبد ربه عز وجل العناية به واستمداده إياه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه»[(٢)]، فبه يستمد «العبد من الله المعونة ويستجلب الرحمة ويستدفع النقمة»[(٣)]، ويكفي المتأمل دلالة على علو منزلة الدعاء في السنة النبوية المطهرة أن قال فيه النبي ﷺ «الدعاء هو العبادة»[(٤)]؛ ولم يرد هذا اللفظ في أي نوع من أنواع العبادة الأخرى، وهو نظير قوله ﷺ

(١) رواه البخاري، (فتح الباري)، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٦/٢٨٩٦).

(٢) كتاب الدعاء: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دراسة وتحقيق: محمد سعيد بن محمد حسن البخاري، دار البشائر الإسلامية، د-ط، د-ت، المجلد الأول، ص٥٣.

(٣) تصحيح الدعاء: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص١٥-١٦.

(٤) رواه الترمذي من حديث النعمان بن بشير في التفسير باب: ومن سورة البقرة، ح٣٢٤٧، وقال: حديث حسن صحيح، وخرجه الألباني في صحيح الجامع (١/٦٤١).

«الحج عرفة»[1]؛ ولهذا سماه الله صلاة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة:٩٩]، وقال أيضا: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة:١٠٣] أي دعاؤك[2]. وقد ورد عنه ﷺ ما يدل أن الدعاء أكرم شيء على الله، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[3]، وأنه أفضل العبادة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أفضل العبادة هو الدعاء»[4]. قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]؛ «يقول اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون ما تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك «أستجب لكم» يقول: أجب دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم»[5].

فالدعاء رحمة لأنه عبادة، وبه تستجلب الرحمة، وبه تستدفع النقمة، وذلك رحمة، وهذا أمر جلي لمن تدبر كتاب الله وفقه سنة رسوله ﷺ، وإذا كان ﷺ قد علم أصحابه الدعاء عند الهم والحزن رحمة بهم رضي الله عنهم كما ورد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتبك، أو علمته أحدا من خلقك،

(١) رواه الترمذي في السنن من حديث عبدالرحمن بن يعمر، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، (٨٨٩/١)، وصححه الألباني.
(٢) ينظر: تصحيح الدعاء: بكر بن عبدالله أبو زيد، ص١٨.
(٣) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، أبواب الدعوات، (٣٣٧٠/٥)، صحيح الجامع (٩٥١/١)، وقال الألباني: حسن.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس، وقال إسناده صحيح، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، (١٨٥٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٧٩).
(٥) تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه: أحمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، د-ت، الجزء العشرون، ص٣٥١-٣٥٢.

أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا»[1].

فإذا كان أمره ﷺ كذلك مع الهم والحزن عموما كثيره ويسيره، حتى الشوكة يشاكها، فكيف بما قد يصيب صحبه في الجهاد والغزو من الجراح والأسر والبتر، ونقص في الأموال والأنفس؟ وكل ذلك مجلبة لشماتة الأعداء.

لقد حرص ﷺ على الدعاء لأصحابه بالنصر والثبات في البعوث والسرايا والغزوات شفقة ورحمة بهم وعليهم، فعن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده على صدري وقال: «اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا»[2]. فهذا دعاؤه لرجل واحد من أصحابه تعسر عليه الثبات على الخيل في الجهاد في سبيل الله رحمة به، فكيف دعاؤه في المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام لأصحابه وقد اجتمعوا. إن تتبع ذلك في كل المعارك أمر لا تحتمله هذه الورقات ولذلك سأكتفي بغزوة بدر الكبرى كمثال رائع، وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف بات المسلمون ليلة السابع عشر من رمضان ببدر، ومعسكر المشركين أمامهم فقال: «لقد رأيتنا يوم بدر وما منا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح... ثم إنه أصابنا من الليل طشّ من المطر فانطلقنا تحت الشجر والحُجُف[3] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «اللهم إنك إن تهلك هذه

(١) أخرجه أحمد من حيث عبدالله بن مسعود، (٣٧١٢)، وهو في السلسة الصحيحة٣٥٢٨.
(٢) أخرجه البخاري (فتح الباري)، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، (٦٠٨٩/١٠).
(٣) الحُجُف: التروس من جلود.

الفئة لا تعبد»، فلما طلع الفجر نادى: «الصلاة عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرض على القتال»[1].

وقد صور القرآن ذلك فقال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١]. ويبدو أنه ﷺ قد تطوع للحراسة ليريح أصحابه، وليستغيث ربه في هدأة الليل فباتوا «ليلهم هادئي الأنفاس منيري الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحا»[2]، وكيف لا تهدأ نفوسهم والنبي ﷺ يحرسهم وبالدعاء في ظلمة الليل يخصهم فيالها من رحمة!

وفي صبيحة السابع عشر من رمضان نظم ﷺ جيشه للقتال وحرّضهم عليه ثم رجع إلى العريش -الذي بني له باقتراح من سعد بن معاذ- ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه ليدير منه المعركة، وقد رأى كثرة المشركين وقلة صحبة المجاهدين، فجأر إلى الله بالدعاء، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حدثني عمر بن الخطاب: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر، فاستقبل القبلة ثم مدّ يديه فلم يزل يهتف بربه: «اللهم أنجزلي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبدّ في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك منا شدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك...»[3].

(١) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية: أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، الجزء الثاني، ص٣٦١.
(٢) الرحيق المختوم: المباركفوري، دار ابن خلدون، د-ط، د-ت، ص١٦٥.
(٣) رواه مسلم من حديث عبدالله بن عباس، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، (١٧٦٣).

فاستجاب له ربه وأمده بالملائكة من عنده قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩]، وفي قضائه ﷺ ليلة بدر في الدعاء والاستغاثة والتضرع، وكذلك صبيحة المعركة بيان لأهمية الفزع إلى الله واللجأ إليه مع اتخاذ الأسباب المادية والمعنوية[١]، فالدعاء من الأسباب المعنوية الإيمانية، ومن الأسباب المادية إعداد العدة وتجهيز الجيش وتنظيمه، بل لقد باشر ﷺ القتال بنفسه الشريفة، قال علي رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا»[٢]، نعم إن تضرعه كان رحمة بأصحابه «فالنبي ﷺ نصر الله متحقق معه، ولكنه يوجه أبصار وقلوب أمته إلى الله، إذ لا يكفي صورة الدعاء بأن نرفع أيدينا، ولا ألفاظ الدعاء بأن نتلفظ بألسنتنا، ولكن لابد من توجه القلوب إلى الله، ونتيقن أن النصر من عند الله عز وجل، وبقدر ما نظهر ضعفنا وحاجتنا وافتقارنا إلى الله فالله معنا»[٣].

ولك أن تتصوره ﷺ ومعه ثلة من خيار جنده وأحبهم إليه، قد خرج بهم لاعتراض قافلة محملة بالأموال والمتاع، وهم حفاة عراة جياع، لم يأخذوا أهبتهم للقتال، وإذا بالقافلة تفرّ، وإذا بجيش عرمرم إليهم قد كرّ، فلم يجد بدّا من النزال، وهي أول معركة له ولهم، فإن هلكت تلك الطائفة فلن يعبدالله في الأرض بهذه الشريعة السمحة، لعلمه أنه خاتم النبيين، وهم طوع أمره يرمي بهم حيث شاء، أفلا يكون بهم رحيما، فيكثر من الابتهال ويلحّ على ربه في طلب النصر، وقد علموا أن دعوته مستجابة

(١) ينظر: صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر: محمد بن صامل السلمي وآخرون، الطبعة الأولى١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ٢٠٤.

(٢) رواه أحمد في المسند من حديث علي، (٢/٢٢٨)، وقال أحمد شاكر: صحيح.

(٣) تأليف النبي ﷺ للقلوب وأثره في الدعوة إلى الله: إبراهيم بن صالح بن صابر المغذوي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، ص١١٤-١١٥.

فتطمئن قلوبهم بذلك، قال الخطابي: «... بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقته على أصحابه وتقوية قلوبهم، لأنه كان أول مشهد شهده، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال، لتسكن نفوسهم عند ذلك، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة»[1]. فصل اللهم عليه وسلم تسليما، واجعله اللهم بنا يوم الشفاعة والحوض رؤوفا رحيما.

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقديم وتحقيق: عبدالقادر شيبة الحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١/٢٠٠١م، الجزء السابع، ص٣٣٨.

المبحث الثاني
التخول بالموعظة والتذكير بما أعد الله للمجاهدين والشهداء

الجهاد ذِروة سنام الإسلام وقبّته، وهو سبيل حماية بيضة المسلمين وحوزتهم من أعدائه الكافرين، وهو درع لحماية المستضعفين، ونشر الدين إذا ما اعترض سبيله المعترضون، فهو أفضل من تطوع الحج والعمرة، وتطوع الصلاة والصوم، «وهو مع ذلك ينتظم كل لون من ألوان العبادات، سواء منها عبادات الظاهر أو الباطن، فإن فيه من عبادات الباطن الزهد في الدنيا، ومفارقة الوطن، وهجرة الرغبات، وفيه من التضحية بالنفس والمال وبيعهما لله، ما هو ثمرة من ثمرات الحب والإيمان، واليقين والتوكل»[1]، فالجهاد وسيلة لنشر الدين ووسيلة لحفظه أيضا بعدّه أهم مقاصد الشريعة الضرورية، ولهذا شرعه الله وحث عليه مع ما فيه من هلاك الأنفس والأموال؛ لأن حفظ الدين مقدم على حفظ النفس والمال، قال الشاطبي: «إن النفوس محترمة محفوظة ومطلوبة الإحياء، بحيث إذا دار الأمر بين إحيائها وإتلاف المال عليها، أو إتلافها وإحياء المال، كان إحياؤها أولى، فإن عارض إحياؤها إماتةَ الدين، كان إحياء الدين أولى، وإن أدى إلى إماتتها، كما جاء في جهاد الكفار وقتل المرتد وغير ذلك»[2]. ولما كان الجهاد مبني على هلاك

(١) الطريق السوي في اقتفاء أثر النبي ﷺ: عبداللطيف بن محمد بن خالد آل موسى، مركز الفجر للإعلام، غزة، فلسطين، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م، الجزء الثاني، ص٣٣١.

(٢) الموافقات: أبو إسحاق الشاطبي، تقديم: بكر بن عبدالله أبوزيد، ضبط وتعليق وتقديم: =

الأنفس والأموال شق ذلك وثقل على النفوس، وقد أخبر الله بذلك فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦]. قال عبدالرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: «هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر المسلمون وقووا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس لما فيه من التعب والمشقة وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف...»[(١)]؛ ولما كان موقع الجهاد من النفوس كذلك أمر الله جل وعز نبيه محمدا ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال رحمة بهم، قال تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:٨٤]. قال عبدالرحمن السعدي في تفسير المقصود بالتحريض في الآية: «وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال»[(٢)]، فالتحريض والحّض إذن يشمل كل أمر يقوّي معنويات المقاتل في سبيل الله، ويربط على قلبه فلا يعرف الجبن والخور إليه سبيلا، مهما كثر العدو واشتدت الجراح وتراقص الموت أمامه؛ شعاره شعار من رباه محمد ﷺ وهو يساق إلى الموت:

ولستُ أُبَالي حِينَ أقتلُ مُسْلِمًا ... على أي شِقٍّ كان في الله مضجعِي

وذلك في ذاتِ الإلهِ وإن يشـأْ ... يباركْ عَلَى أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[(٣)]

= أبو عبيدة مشهور بن حسن، آل سليمان، دار ابن عفان، الخُبَر، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، المجلد الثاني، ص٦٤.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: عبدالله ابن عبدالعزيز عقيل، ومحمد بن صالح العثيمين، اعتناء وتحقيق ومقابلة: عبدالرحمن معلاّ اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٩٦-٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ص١٩٠.

(٣) رواه البخاري، (فتح الباري)، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ورعْل، وذكوان وبئر معونة، (٤٠٨٦)، والبيتان للصحابي الجليل خبيب ﷺ وكان قد أسر في بعث الرجيع وصلبة المشركون.

لا يحول بينه وبين التضحية والبذل لا الآباء، ولا الأبناء، ولا الإخوان، ولا الأزواج، ولا العشيرة، ولا الأموال، ولا التجارة التي يُخشى كسادها، ولا المساكن المرضية، والقصور البهية، قد عاف الدنيا وزخرفها همّة إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وبمثل هذا المنهج حارب الرسول ﷺ عوامل الضعف ونزعات الخوف أن تستبد بنفوس أصحابه؛ وهم يقارعون أعتى قوتين عسكريتين آنذاك، ومن ورائهما العالم كله، وغرس في نفوسهم الشجاعة والإقدام، وذلك من رحمته بأصحابه المجاهدين ومن تبعهم على درب الجهاد إلى يوم الدين.

فتذكير المجاهد بما أعد الله له في الجنة رحمة، وتذكيره بما أعد للمتخلفين من العقاب رحمة، وبيان حال العدو وضعفه وأن وليه الشيطان وهو ضعيف رحمة... إلخ، وجملة الأمر أن كل أمر يقوي قلب المجاهد ويحضه على الاستبسال في سوح الوغى فهو مما أمر الله به نبيه من التحريض وهو رحمة لأن عاقبته النصر على الأعداء ونيل الجزاء، بل هو رحمة متعدية وصدقة جارية، لأن المجاهد إذا رفع سيفه في أي بقعة من الأرض اشرأبَّت له أعناق الموَّحدين من كل فج ولهجت ألسنتهم بالدعاء والنصر له، وخاصة المستضعفين منهم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء:٧٥]. قال ابن قيم الجوزية: «ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والرّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨].

وقد نال الصحابة رضي الله عنهم لحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، ببركة تحريضه

لهم على الإيمان والهجرة والجهاد رحمة بهم؛ لينالوا رحمة ربهم، وما كان سبيلا إلى الرحمة فهو رحمة، وإن رآه الجاهلون فظاظة وغلظة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]. فمظاهرته يوم أحد بين درعين[١] «رغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل تعويدا لأمته على الأخذ بالأسباب المادية ثم التوكل على الله»[٢]، وتحريضا لأصحابه على القتال، وذلك أنه لما نزل جيش المشركين قريبا من أحد شاور النبي ﷺ أصحابه في الخروج لملاقاة العدو أو استدراجه إلى شوارع المدينة وأزقتها، وكان رأي الرسول ﷺ وأهل الرأي من أصحابه القتال في المدينة، لكن الرجال الذين تغيبوا عن بدر تحمسوا للخروج، ووافقهم الشباب الراغب في الشهادة، فنزل ﷺ عند رغبتهم، وشعر القوم أنهم قد استكرهوا الرسول ﷺ على الخروج، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه غير أنه ﷺ قد وجد غضاضة من الاضطراب بين شتى الآراء فقال: «ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»[٣]، وقد أحسن الغزالي «حين رد رفضه ﷺ التراجع عن الخروج إلى الغضاضة التي وجدها ﷺ في التردد بين الآراء لما في ذلك من أثر سيء على معنويات أصحابه؛ لأن من صفات القائد الناجح عدم التردد بعد العزيمة، والشروع في التنفيذ «فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع»[٤]، وقد أمره ربه بالتحريض ولم يأمره بالتثبيط بل نهاه عنه.

ومنح السَلَب للقاتل تحريضا لأصحابه على الجهاد، فعن أبي قتادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين: فلما التقينا كانت للمسلمين

(١) رواه الحاكم في المستدرك من حديث الزبير بن العوام، كتاب المغازي والسير، (٤٣٧١)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري، الجزء الثاني، ص٣٨١.
(٣) ينظر: فقه السيرة: محمد الغزالي، خرّج أحاديث الكتاب: محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، الطبعة السادسة، ١٩٦٥م، ص٢٦٩.
(٤) السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري، الجزء الثاني، ص٣٨٠.

جولة، فرأيت رجلا من المشركين علا رجلا من المسلمين، فاستدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه، فاقبل عليَّ فضمّني ضمّة وجدت منها رائحة الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس النبي ﷺ فقال: «من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه» فقمت فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال: من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه» فقمت فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال الثالثة مثله، فقال رجل: صدق يا رسول الله، وسلبه عندي، فأرْضِه عني، فقال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه لاها الله إذ لا يعمد إلى أسَدٍ من أُسُد الله يقاتل عن الله ورسوله يعطيك سلبه، فقال النبي ﷺ: «صدق» فأعطاه فبعث الدرع فابتعت مخرفا في بني سلمة، فإنه لَأَوَّل ما تأثَّلته[1] في الإسلام»[2].

وقد أوردت هذين النموذجين من التحريض لتأكيد صحة أنه اسم جامع لكل ما يقوي قلب المجاهد ويربط عليه، وإلا فإن موضوع بحثنا هو واحد من صنوف التحريض، بل هو أعظمها منزلة وأوقعها أثرا في نفوس المجاهدين؛ إنه فضل الجهاد والشهادة اللذين ما فتئ الرسول ﷺ يذكر أصحابه بهما في الحرب والسلم.

(١) التأثل اتخاذ أصل مال، والمراد هنا: أنه أول مال اكتسبه وتملكه في الإسلام رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري، (فتح الباري)، كتاب الجهاد والسير، باب من لم يخمس الخمس، ومن قتل قتيلا فله سلبه، وحكم الإمام فيه، (٦/٣٠٣٧).

المبحث الثالث
التخفيف في العبادات (صلاة الخوف أنموذجا)

دأب الفقهاء في كتبهم على تخصيص باب في الفقه أسموه: «باب أهل الأعذار»، وأهل الأعذار هم: المرضى، والمسافرون، والخائفون؛ الذين لا يمكنهم أداء الصلاة على الصفة التي يؤديها غير المعذور، فالخوف إذن هو العذر الثالث من الأعذار التي تختلف بسببها في هيئتها أو عددها، فصلاة الخوف تشرع في كل قتال مباح كقتال الكفار، والبغاة المحاربين، والخوارج المارقين؛ إذا خيف هجومهم على المسلمين حال الصلاة، وهي مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع، ولست في هذا المقام بصدد تحرير مسائل صلاة الخوف والتحقيق فيها، والوقوف على كل مباحثها وجزئياتها، فإن ذلك يتطلب سِفْرًا كاملا، وإنما أقف على المسائل والجزئيات التي تخدم عنوان البحث، وتؤشر لرحمته ﷺ بأصحابه في الغزو والجهاد، مع التأكيد على أن هذا لا يعني أن بعضها الآخر لا يؤشر، بل أحكام صلاة الخوف كلها رحمات بعضها فوق بعض، وإنما حجم البحث هو الذي فرض انتخاب ما أراه بطبيعة البحث ألصق وأقرب.

أ. تنوع صفات صلاة الخوف رحمة:

ورد في كيفية صلاة الخوف صفات كثيرة اختلف الفقهاء في عددها: فقال ابن القصار المالكي: إن النبي ﷺ صلاها في عشرة مواطن، وقال النووي: إنه

قد بلغ ستة عشر وجها كلها جائزة، وسرد ابن المنذر في صفتها ثمانية أوجه، وزاد ابن حبان وجها تاسعا، وقال ابن حزم: ثبت فيها أربعة عشر وجها، وقال ابن العربي: صحت فيها ست عشرة رواية، وزاد الحافظ العراقي في «شرح الترمذي» وجها آخر، فصارت سبعة عشر وجها[1]. وقد رجحت كل طائفة من أهل العلم نوعا منها. قال ابن قيم الجوزية: «والصحيح ما ذكرناه أولا، وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة جعلوا ذلك وجوها من فعل النبي ﷺ، وإنما هو اختلاف الرواة»[2]. ويقصد ابن قيم الجوزية بما ذكره أولا قول الإمام أحمد رحمه الله: «كل حديث يروى في أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز... وقال: ستة أوجه أو سبعة تروى فيها كلها جائزة»[3]، وهذا هو الراجح من القول وفي سنِّه ﷺ لهيئات صلاة الخوف وكيفياتها بطرق مختلفة رحمة بأصحابه رضي الله عنهم، ومن ورائهم أمته ﷺ قاطبة، لعلمه ﷺ أن هيئات الحروب وكيفيتها غير متناهية، وتختلف من أمة لأخرى، ومن زمن لآخر باختلاف وسائلها، وهي غير متناهية، وقد أعدّ أصحابه لتبليغ دينه إلى الأمم جميعا بلا استثناء، فمن رحمته بهم أن يجدوا لكل هيئة من هيئات الحروب ما يناسبها من هيئات الصلاة ولذلك توسع والتوسعة تيسير والتيسير رحمة.

قال محمد الأمين الشنقيطي «وهيئات صلاة الخوف كثيرة، فإن العدو تارة يكون إلى جهة القبلة، وتارة إلى غيرها، والصلاة قد تكون رباعية، وقد تكون ثلاثية، وقد تكون ثنائية، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم القتال، فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى رجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها»[4]. بل أقول: إن ومن رحمته ﷺ ألا تُرَجَّح كيفية

(١) ينظر: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن القيم، الرياض، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، المجلد الرابع، ص٤٨٢-٤٨٣.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية، الجزء الأول، ص٥٣٢.
(٣) المرجع نفسه، الجزء الأول، ص٥٣١.
(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي، إشراف: بكر عبدالله أبو زيد،

على أخرى نظرا، بل هيئة الحرب هي التي ترجح ما يناسبها، ومرد ذلك إلى أمير الحرب «وعلى كل فالظاهر أنه لا ترجح هيئة على هيئة، ولا تقول بأن هناك كيفية أفضل من كيفية أخرى، وإنما المعوَّل عليه في هذا ما تقتضيه أحوال الحرب...»[1]. تلك رحمة عامة بأنواع صلاة الخوف كلها، وهناك رحمة خاصة بكل نوع منها، ولن أقف عليها جميعا بل سأقصر حديثي على نوعين منها:

الأول: عن صالح بن خوات، عمن صلى مع النبي ﷺ يوم ذات الرقاع أن طائفة صفت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلى با للتي معه ركعة، ثم ثبت قائما فأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالسا فأتموا لأنفسهم فسلم بهم»[2].

الثاني: عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وصفَفْنا صفين خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة، فكبّر النبي ﷺ وكّبرنا جميعا، ثم ركع وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع، ورفعنا جميعا، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف المُؤَخَّر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر، وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه

(١) شرح عمدة الأحكام: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشتري، اعتنى به: عبدالناصر بن عبدالقادر البشبيشي، كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، الجزء الأول، ص٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري(فتح الباري)، كتاب السير والمغازي، غزوة ذات الرقاع، (٣٩٨٩/٧).

الذي كان مؤخرا في الركعة الأولى وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعا»[1]. ولن أخوض في شرح متن هذين الحديثين لوضوحهما وجلائهما، ولكن سأقف على بعض الجزئيات الفقهية التي تظهر جانبا من فيض رحمته ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم.

ب. العدل في الائتمام بين الطائفتين رحمة:

أول ما يُلحظ على هاتين الصفتين -وغيرهما من الصفات- عدله ﷺ بين أصحابه في الائتمام، ففي حديث صالح بن خوات نجده ﷺ يصلي بالطائفة الأولى ركعة ثم يثبت قائما ينتظرها لتتم الركعة الثانية وتسلم وتنصرف، ثم تأتي الطائفة الثانية فيصلي بهم ركعة ويثبت جالسا ينتظرها لتتم الركعة الثانية ثم يسلم بهم فهو ﷺ ينتظرهم مرتين إقامة للعدل بينهما، وقد ذُكِر أن من فوائد هذا الحديث: «تطييب قلوب الجماعة بمساواتهم ومواساتهم»[2]، وبما أن الطائفة الأولى قد أدركت معه فضل تكبيرة الإحرام والسبق؛ فإن الثانية قد نالت فضل التسليم. قال السفاريني في هذه القضية بالذات: «ولأن الأولى أدركت فضيلة الإحرام والتقدم، فينبغي أن يزيد الثانية في الركعات فيجبر نقصهم به، ولنا أنه إذا لم يكن بد من التفضيل فالأولى أحق به، وما فات الثانية من فضيلة الإحرام ينجبر بإدراكهم السلام، ولأنها تصلي جميع صلاتها في حكم الائتمام، والأولى تفعل بعض صلاتها في حكم الانفراد»[3].

(١) رواه مسلم من حديث جابر بن عبدالله، كتاب الصلاة، باب صلاة الخوف، (٨٤٠).
(٢) فقه الإسلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام: الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالقادر شيبة الحمد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، د-ت، الجزء الثاني، ص٢٠٠.
(٣) كشف اللثام شرح عمدة الأحكام: السفاريني، تحقيق وضبط: نور الدين طالب، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، المجلد الثالث، ص٢٩٢.

ولو أنه صلى بالطائفة الأولى وأوكل إمامة الطائفة الثانية لرجل آخر من خيرة أصحابه؛ كأبي بكر أو عمرَ مثلا تحصيلا لفضل الجماعة، لما كان في ذلك بأس من جهة الجواز والصحة، ولكن البأس من جهة العدل بين أصحابه، وما كان ذلك ليفوته وهو أحرص الخلق على العدل بين أصحابه رحمة بهم، وقد علم حرصهم وتنافسهم على الائتمام به، قال الحافظ العراقي: «ولو أمر رجلا يصلي بالطائفة الثانية لتحصل الجماعة لما كان به بأس، لكنهم كانوا يتنافسون في الصلاة خلفه فأراد أن يعمهم بالصلاة معه؛ بل في صلاة الخوف على هذا الوجه أمور لا تصلح في غير صلاة الخوف، من ذهابهم إلى العدو، واستدبارهم القبلة وهم في الصلاة، كل ذلك لحرصهم على الصلاة معه، وأن لا يفوز بذلك بعضهم دون بعض»[1]، وفي حديث جابر أيضا «مشروعية العدل والترغيب فيه، فإن النبي ﷺ أراد أن يعدل بين الصفين الأول والثاني، فكان أهل الصف الأول يصلون معه الركعة الأولى ويفعلون مثل أفعاله، فمن باب العدل أن يجعل لأهل الصف الثاني مثل ما جعل لأهل الصف الأول من موالاة النبي ﷺ ومن متابعته مباشرة»[2]، تطييبا لقلوبهم، ومواساة ومساواة في طلب الفضائل، ولتزداد هذه الرحمة جلاء هلم بنا إلى ما لاحظه عروة بن مسعود الثقفي؛ رسول قريش إلى محمد ﷺ في صلح الحديبية من تعظيم أصحاب محمد لمحمد، وتفانيهم في طاعته، والاقتداء به، فولّى إلى قومه قائلا: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك؛ ووفدت على قيصر وكِسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَلِكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن يتنخَّمُ نُخَامَة إلا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا

(١) طرح التثريب في شرح التقريب: الحافظ العراقي وولده، وليّ الدين أبو زرعة العراقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د-ط، د-ت، الجزء الثالث، ص١٤١-١٤٢.

(٢) شرح عمدة الأحكام: سعد بن ناصر الشتري، الجزء الأول، ص٣٤٨.

أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظر إليه النظر تعظيما له»[1].

فإذا كانت نخامته ﷺ لا تقع إلا في يد واحد من أصحابه، فيدلك بها وجهه وجلده تبركا، وعلى فضل وَضوئه يقتتلون، وهم يدركون أن النخامة لا تسع الجميع، وفضل وضوئه لا يكفي الجميع، فكيف بالصلاة خلفه وهي ممكنة متاحة، وكم يدخل من الهم والغم على الطائفة المحرومة من بركة الاقتداء به في الصلاة، وعلى قدر الفائت يكون الهم، وعلى قدر المحصل يكون والحبور، لقد أدرك الرؤوف الرحيم ما رُبُّوا عليه من حب الاقتداء، فدفع عنهم الهم ودفع إليهم السرور بعدله ومساواته، فطابت القلوب ونزلت السكينة فيا لها من رحمة.

(١) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب الجهاد والسير، باب الشروط والجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط مع الناس بالقول، (٥/٢٧٣١).

المبحث الرابع
تأليف قلوب الضعفاء

ذكر الله عز وجل في كتابه المؤلفة قلوبهم، وأنهم أحد المستحقين للزكاة فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة:٦٠]. فمن هم المؤلفة قلوبهم؟ لقد اخْتُلِف في المراد بالمؤلفة قلوبهم فقيل: كفار يعطون ترغيبا في الإسلام، وقيل: مسلمون لهم أتباع كفار يتألفونهم، وقيل مسلمون أوَّل ما دخلوا في الإسلام ليتمكن الإسلام من قلوبهم(١)، والصحيح ما يشمل ذلك كله، قال عبدالرحمن السعدي: «المؤلَّف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره، أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة»(٢)، وعلى هذا ففئة المؤلفة قلوبهم تتضمن صنفين من الناس، كافر يرجى إسلامه وخيره أو يخشى مكره وضرره، أو مسلم ضعيف الإيمان يرجى تقويته، وذلك حال الوافدين الجدد على الإسلام، ولذلك خصهم النبي ﷺ بالعطاء؛ لما في ذلك من مصلحة الإسلام وأهله، والمصلحة رحمة، رحمة لضعيف الإيمان بأن يقوي إيمانه ويحسن إسلامه ويكون ردءا للمسلمين، ورحمة للكافر بأن

(١) ينظر: نيل الأوطار: الشوكاني، الجزء التاسع، ص٤٥٩.
(٢) عبدالرحمن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٤١.

يترك الكفر وهو سبيل عذاب، ويدخل في الإسلام وهو سبيل نجاة، ورحمة وقد يقال هذا ليس موضع استشهاد لعنوان البحث؛ لأننا نتحدث عن رحمته ﷺ بأصحابه لا بالكفار، فأقول: بلى أليس في دخول المشركين في دين الله أفواجا دفعا لشرهم، وجلبا لنفعهم في غزوات الصحابة مع نبيهم ﷺ؟ «فما ظنك بعطاء قوَّى الإسلام وأهله، وأذلَّ الكفر وحزبه، واستجلب به قلوب رؤوس القبائل والعشائر الذين إذا غضبوا غضب لغضبهم أتباعهم، وإذا رضُوا رضُوا لرضاهم، فإذا أسلم هؤلاء لم يتخلف عنهم أحد من قومهم، فـلله ما أعظم موقع هذا العطاء، وما أجداه وأنفعه للإسلام وأهله»[1].

إنه عين المصلحة، والمصلحة رحمة، وعين الحكمة، والحكمة رحمة، وعين العدل، والعدل رحمة، وعين الرحمة، والرحمة رحمة، فصلى الله عليه وسلم تسليما، كيف لا يكون ذلك رحمة في مقابل غلظتهم وجفائهم وجهلهم بحدود ما أنزل الله على رسوله، بل كانوا السبب في هزيمة المسلمين في الجولة الأولى من غزوة حنين، فكانوا أول المنهزمين وأشاعوا الفزع والذعر في نفوس المجاهدين[2]، فهم الطلقاء الذين قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: «سبحان الله، كما قال قوم موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من قبلكم»[3]، وذات أنواط شجرة ضخمة كانت لبعض القبائل في الجاهلية يأتونها كل سنة للتبرك بها، فيعلقون أسلحتهم عليها، وينحرون عندها، ويعكفون عليها يوما، فلم يفقه هؤلاء بعد أن جهاد النبي ﷺ إنما هو للقضاء على الشرك وإعلاء كلمة التوحيد، وهذا دليل على عدم

(١) زاد المعاد: ابن قيم الجوزية، الجزء ٣، ص٤٨٥.
(٢) ينظر: الرسول القائد: محمود شيت خطاب: مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٠، ص ٢٤٩.
(٣) رواه الترمذي في سننه من حديث أبي واقد الليثي، باب ما جاء في لتركبن سنن من كان قبلكم، وقال حسن صحيح، (٤/ ٢١٨٠).

وضوح مفهوم التوحيد الخالص عندهم على الرغم من إسلامهم، لكن النبي ﷺ بين لهم أن ذلك من الشرك، وحذرهم منه، ولم يعاقبهم، أو يعنف عليهم، لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام.[1]

وهم (الطلقاء) الذين انكشفوا عن رسول الله، وقد طالبت أم سُلَيم ﷺ بقتلهم لجبنهم وفرارهم، فأبى ذلك. روى الإمام أحمد في مسنده أن أبا طلحة -وهو من فرسان المسلمين المعدودين- لقي أم سليم ومعها خنجر فقال لها: ما هذا؟ قالت: إن دنا مني بعض المشركين أبعج بطنه -وذلك في معركة حنين-، فقال أبو طلحة لرسول الله: أما تسمع ما تقول أم سليم؟ فضحك النبي، فقالت أم سليم: يا رسول الله أقتل من بعدها الطلقاء الذين انهزموا بك، فقال: إن الله قد كفى وأحسن يا أم سليم»[2]. ولو حدث مثل هذا في الجيوش المعاصرة تنصب المحاكم للفارين تحت تهمة الخيانة العظمى، والإخلال بالواجب الوطني، وتكون الأحكام قاسية جدا، تبدأ بالقتل وتنتهي بالفصل، وقلَّ من ينجو من ذلك.

إن معظم الطلقاء ما خرجوا إلا للحصول على الغنائم، والنظر لمن تكون الغلبة، فلم تتشكل لديهم صورة واضحة عن التوحيد وعن الجهاد في سبيله، فأنَّى لهم الثبات؟ «والعجب أن هؤلاء الذين فرُّوا عند الفزع هم الذين كثُروا عند الطمع، «وشاء النبي أن يلطف معهم وينسى ماضيهم تكرما وتأليفا»[3]، وترحما، لعلمه ﷺ أنهم حدثاء عهد بهذا الدين، وأنهم خرجوا طلبا لحطام الدنيا، وصدق من قال: «إن في الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تُهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمدّ إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة،

(١) ينظر: السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري، ج٢، ص٤٩٧.
(٢) فقه السيرة: محمد الغزال، ص٤٢٧، وقال الألباني في الحاشية، رواه أحمد المسند (٣/١٩٠)، وسنده صحيح على شرط مسلم.
(٣) المرجع نفسه، ص ٤٢٧.

فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له»[1]، نعم لقد ظهر من رسول الله ﷺ من الحلم والصبر والعفو على جفاء وغلظة الأعراب وحرصهم على الغنائم، ما كان «مثالا للمربي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم خُلُقه، ويطمئنهم على مصالحهم، ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيما»[2]؛ مع أنهم كانوا عقبة كؤودا في طريق الإسلام وأهله، وسيوفهم لم تألف سيوف المهاجرين والأنصار لما بينها من ثأر قديم، ودم نازف، ولكن الرؤوف الرحيم بما له من بعد النظر وتقدير المصالح ومآلاتها، تألفهم رحمة بهم وبالإسلام وأهله في قابل الأيام، حاله كمن يغرس فسيلة ويرعاها منتظرا الثمار، فلم يطل العهد حتى «أصبح هؤلاء المؤلفة قلوبهم من قادة جيوش المسلمين في الفتوحات في عهد أبي بكر وعمر، فمن ينسى مواقف عكرمة وصفوان وأبي سفيان بن حرب في معارك اليرموك وفتوحات الشام»[3]، فهلم بنا إلى تلك الصور المشرقة، والنماذج الرائعة؛ الدالة على سخائه وحلمه وعفوه، وأثرها في تأليف قلوبهم، وعطفها على الإسلام وأهله، وهي كثيرة سنقف على اثنين منها إيثارا للاختصار وهما: مسلمة الفتح، والأعراب، وكيف عاملهم ﷺ يوم حنين وهم يسألونه التعجيل بقسمتها والمزيد منها.

أ. صبره على جفاء الأعراب:

من المعروف أن الأعراب هم سكان البادية، وهم أناس جفاة قساة، وقد قال ﷺ «من سكن البادية جفا»[4]، ولذلك تجد غلظة في أقوالهم وأفعالهم

(١) ا فقه السيرة: محمد الغزال، ص٤٢٧.
(٢) السيرة النبوية الصحيحة: أكرم العمري، الجزء ٢، ص٥١٥.
(٣) أثر معاملة الرسول ﷺ في نشر الدين الإسلامي: يحيى بن عبدالله البكري الشهري، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، أثناء النشر الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٥٨.
(٤) رواه أبو داود من حديث ابن عباس، باب في اتباع الصيد، (٢٨٥٩)، وصححه الألباني في صحيح

بخلاف ساكنة الحضر، وقد قابل ﷺ ذلك منهم بالرحمة والحلم والصبر، مراعاة لحالهم، وتأليفا لقلوبهم. ففي غزوة حنين أظهر بعض الأعراب غلظة وجفاء عند تقسيم الغنائم فمن ذلك:

١. الأعراب تضطره إلى سَمُرَة: شاع في الناس أن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحموا عليه يستعجلونه القسمة، ويبغون المزيد، يقولون: «يا رسول الله اقسم علينا فيئنا حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه، فقال: «يا أيها الناس ردُّوا علي ردائي فو الذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تِهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا»، ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: «أيها الناس، والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم»[(١)].

٢. أعرابي يجذبه بردائه جذبة شديدة: عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى انشق البرد، وحتى بقيت حاشيته في عنق رسول الله ﷺ ونظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال يا محمد، مرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء»[(٢)].

الجامع (٦١٢٣).

(١) ، رواه أحمد (٦٧٢٩)، والبيهقي (٣٣٧/٣٣٦) بسند حسن عن عبدالله بن عمر، والبخاري (١٩٣/٦-١٩٤) عن جبير بن مطعم إلى قوله كذابا، والباقي عند الحاكم (٤٩/٣) من حديث عبادة بن الصامت، ينظر: فقه السيرة: محمد الغزال حاشية ص٤٢٦ . وقال الألباني: صحيح.

(٢) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب فرض الخمس، باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، (٣١٤٩/٧).

٣. أعرابي يرد بشارة النبي ﷺ: عن أبي موسى قال: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة- ومعه بلال فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر» فقال: «أكثرت على من «أبشر»، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: «رد البشرى فاقبلا أنتما»، قالا: قبلنا، ثم دعا بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما، وأبشرا»، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أمّ سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة»[١].

قال ابن حجر في الفتح عن هذا الوعد «يحتمل أن يكون خاصا به، ويحتمل أن يكون عاما، وكان طلبه أن يعجل له نصيبه من القسمة، فإنه ﷺ كان أمر أن تجمع غنائم حنين بالجعرانة، وتوجه هو بالعساكر إلى الطائف، فلما رجع منها قسم الغنائم حينئذ بالجعرانة، فلهذا وقع في كثير ممن كان حديث عهد بالإسلام استبطاء الغنيمة واستنجاز قسمتها»[٢]، فما أحلمه! وما أرأفه! وما أصبره! وما أرحمه! يُعترض على قسمته ويُقال: «ما أريد بها وجه الله»، ويُطلب منه العدل وهو أعدل خلق الله، وتَرَد بشارته، وهو البشير الصادق، ويُجذب رداؤه من خلفه حتى يتمزق ويوثر في صفحه عنقه، فيلتفت ضاحكا ويأمر له بالعطاء، ويُضايق فيضطر إلى شجرة تعلَّق بها رداؤه يستعجلونه القسمة، فيبين لهم برفق ولين، أنه ليس له من هذا الحطام شيء إلا الخمس وهو مردود عليهم، ويعدهم خيرا، ولم يؤْثر عنه ﷺ أنه عاقب أحدا منهم فمنعه العطاء

(١) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب المغازي، غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، (٤٣٢٨/٧).
(٢) فتح الباري: ابن حجر، الجزء السابع، ص٦٤٥.

تعزيرا وتأديبا، بل أجزل لهم ذلك رجاء تثبيت الإسلام في قلوبهم، فكيف لو اعترض جندي في هذا الزمان على قائده أو طعن في قسمته؟ أو رد بشارته أو هبته؟ أمَّا أن يصل إلى ردائه فيجذبه أو يزدحم عليه فيضايقه، فذلك بعيد المنال صعب التصور في الخيال. أمّا محمد ﷺ فتلك حاله، وتلك أفعاله، فأنى تترك الرحمةُ للغلظة في قلبه مكانا؟ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

٤. عطاؤه للطلقاء والأعراب: بلغت غنائم حنين مبلغا عظيما: ستة آلاف من السبي، ومن الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألفا شاة، وأربعة آلاف أُوقية فضة[١]، وكره رسول الله ﷺ أن يقسم الغنائم رجاء أن يقدم عليه أهل الطائف تائبين فيحرزوا أموالهم وذراريهم، ومكث ينتظر بضع عشرة ليلة فلم يجئه أحد[٢]، ثم شرع في قسمة الأموال وتأنى بالسبي للغرض نفسه «وفي هذا دليل على أنه كان يجب إسلامهم حيث لم يبادر بقسمة الغنائم ثم بدأ بالأموال فقسمها»[٣]، فأجزل العطاء للطلقاء والأعراب يتألف قلوبهم، ومنهم: أبو سفيان بن حرب، وابنيه معاوية ويزيد، وسهيل ابن عمرو، وحويطب بن عبدالعزّى، وحكيم بن حزام، وأبو السنابل ابن بعكك، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصين الفزاري، والأقرع ابن حابس التميمي، والعباس بن مرداس السلمي، وجبير بن مطعم وغيرهم، والقائمة تزيد عن أربعين نفسا [٤]، فعن رافع بن خديج

(١) كتاب الطبقات الكبرى: محمد بن سعد الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، الجزء الثاني، ص١٤١.
(٢) قال الألباني: صحيح، ذكره ابن إسحاق بدون إسناد، ومعناه في البخاري (٨/٢٣-٣٥)، وابن جرير(٢/٣٥١) من حديث أبي موسى الأشعري، ينظر: فقه السيرة: محمد الغزالي حاشية ص٤٢٥.
(٣) أثر معاملة الرسول في نشر الدين الإسلامي، يحيى بن عبدالله البكري الشهري، ص٥٤.
(٤) ينظر: فتح الباري، ابن حجر، الجزء السابع، ص٦٤٥.

قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حِصْن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مئة من الإبل وأعطى عباس بنَ مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعلُ نهبي ونهبَ العبيدِ ... بينَ عيينةَ والأقرعِ

فما كان بدرٌ ولا حابسٌ ... يفوقانِ مرداسَ في المجمعِ

قال: فأتمّ له رسول الله ﷺ مئة[1].

وقد خفيت الحكمة من هذا التوزيع على الأنصار ووجدوا في أنفسهم منها، وعتبوا عليه، وقال بعض أحداثهم: «إذا كانت الشدة ندعى ويُعطى الغنائم غيرنا»، أو «يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم»[2]، قال أنس: فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدَم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قام النبي ﷺ، فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم؟ «قال له فقهاؤهم: «أما ذوو رأينا برسول الله فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثه أسَنَانُهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أعطي رجالا حديثٌ عهدهم بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم برسول الله، فوالله ما تنقلبون به خير ممّا ينقلبون به»، قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أثَرَة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»[3]. وفي رواية «أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى، قال: «لو سلك الناس واديا

(١) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج، كتاب الزكاة، باب إعطاء من يخاف على إيمانه، (٢/٢٤٤٣).
(٢) رواه البخاري، (فتح الباري)، كتاب المغازي، غزوة الطائف في شوال سنة ثمان (فتح الباري)، (٧/٤٣٣١).
(٣) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب المغازي، غزوة الطائف في شوال سنة ثمان (٧/٤٣٣٠).

أو شِعْبًا لسلكت وادي الأنصار أو شِعْبَهُا»[١]، وقال: «إني أعطي قوما أخاف ظَلَعَهُم[٢] وجزعهم، وأكِل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء، منهم عمرو بن تغلب، فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْر النعم»[٣]، وفي رواية: «إني أعطي قريشا أتألفهم لأنهم حديث عهد بجاهلية»[٤].

وقد اتضحت لهم الحكمة عمليا فها هو صفوان بن أمية يقول: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي»[٥]، وصدقت مقولة الإمام مالك بن أنس حين قال: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[٦].وها هو الأقرع بن حابس الذي رفض أن يرد عجوزا شمطاء من سبي هوازن -وقد طلب منه ذلك النبي ﷺ- يسوق عشرة من أبنائه في معركة اليرموك إلى الشهادة في سبيل الله سوقا، فنالها وإياهم ولم يرجع منهم أحد، وذلك بعد أن أصابته رحمة النبي ﷺ وحسن إسلامه، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية المؤلفة قلوبهم إلا يسيرا منهم، مثل عيينة بن حصن الفزاري فلم يزل مغمورا كما يقول ابن حزم[٧].

(١) رواه البخاري(فتح الباري)، كتاب المغازي، غزوة الطائف في شوال سنة ثمان (٧/ ٣٣٣٠).
(٢) الظَلَع: هو الاعوجاج والميل، والمراد هنا ميل القلوب، وضعف اليقين.
(٣) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب فرض الخمس، باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، (٦/ ٣١٤٥).
(٤) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب فرض الخمس، باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، (٦/ ٣١٤٦).
(٥) رواه مسلم من حديث أنس، كتاب الفضائل، باب ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا، وكثرة عطائه، (٢٣١٢).
(٦) رواه مسلم من حديث كتاب الفضائل، باب ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا، وكثرة عطائه، (٢٣١٣).
(٧) جوامع السيرة: ابن حزم ص٢٤٨.

المبحث الخامس
قسمة الغنائم

الغنيمة هي ما يأخذه المجاهدون من عدوهم عن طريق القتال، ومن رحمته ﷺ بأمته أن اختص بإحلال الغنائم، ولم تحل لأحد من قبله، روى البخاري عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا، وأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»[1]، وروى مسلم في صحيحه تحت باب «إحلال الغنائم لهذه الأمة «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه، لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يَبْنِ، ولا آخر قد بنى بنيانا ولمّا يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنما أو خَلِفاتٍ وهو منتظر وِلادها. قال: فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عَلَيَّ شيئا، فحُبِسَت حتى فتح الله عليه، قال: فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار تأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول،

(١) صحيح البخاري (فتح الباري)، كتاب التيمم، (١/٣٣١).

فلتبايعني قبيلتك فبايعته، قال: فلصق بيد رجلين أو ثلاثة، فقال فيكم الغلول، أنتم غللتم، قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه في المال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله (تبارك وتعال) رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»[1]، ففي هذا الحديث إحلال الغنائم لهذه الأمة، وأنها مختصة بها، قال شارح الحديث «وفيه اختصاص هذه الأمة بحلِّ الغنائم، وأن إظهار العجز بين يدي الله يستوجب ثبوت الفضل»[2].

والفضل رحمة من الله للمجاهدين من هذه الأمة وعلى رأسهم صحبه الكرام ﷺ خاصة إذا علمنا حال الصحابة وقد أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق، فجازاهم ربهم بإحلال الغنائم، والجزاء من جنس العمل، قال ابن القيم: «وكذلك إباحة الغنائم كان قبيحا في حق من قبلنا؛ لئلا تحملهم إباحتها على القتال لأجلها، والعمل لغير الله، فتفوت عليهم مصلحة الإخلاص؛ التي هي أعظم المصالح فحمى أحكم الحاكمين جانب هذه المصلحة العظيمة بتحريمها عليهم، ثم لما وجد هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولا، وأرسخهم إيمانا، وأعظمهم توحيدا وإخلاصا، وأرغبهم في الآخرة، وأزهدهم في الدنيا، أباح لهم الغنائم، وكانت إباحتها حسنة بالنسبة إليهم، وإن كانت قبيحة بالنسبة إلى من قبلهم، فكانت كإباحة الطبيب اللحم للصحيح الذي لا يخشى عليه من مضرته، وحميته منه للمريض المحموم»[3].

وتأمل معي قوله ﷺ «ذلك بأن الله (تبارك وتعالى) رأى ضعفنا

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب الجهاد والسير، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، (١٧٤٧).

(٢) منة المنعم في شرح صحيح المسلم: صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، الجزء الثالث، ص١٧٨.

(٣) مفتاح دار السعادة: شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، د-ط، ١٩٩٨م، الجزء الثاني، ص٣٤٦-٣٤٧.

وعجزنا فطيَّبَها لنا» وكيف جعل ﷺ الضعف والعجز سببا للإحلال، ولو طلب من بليغ أن يتم الحديث وقد عُمِّيت عليه عبارة «فطيبها لنا» لقال فرحمنا فأحلها لنا «لأن الضعف والعجز يتطلبان الرحمة، ومنها إحلال ما حرم على غيرنا من الأمم، ولكنه ﷺ ويلم أوتي جوامع الكلم، ومن البلاغة الحذف والإيجاز، فببركة رحمته ﷺ أذن لصحبه المجاهدين ومن تبعهم بالغنيمة ولا تضر بجهادهم «إذا كان أصل الباعث عليه هو إعلاء كلمة الله كما قال جمهور العلماء[1].

إذن تطيب الغنائم لهذه الأمة دون سائر الأمة من خصائصه ﷺ، وهو من رحمته بأمته، هذا من حيث التشريع ابتداء. أما من حيث تقسيمها فرحماته ﷺ بأصحابه بادية لا خفاء فيها، ومنها:

أ. تنفيل بعض الجيش للمصلحة رحمة:

ثبت عن النبي ﷺ أنه كان ينفِّل بعض الجيش لبأسه وبلائه في المعركة دون غيره، وقد أجاز الفقهاء انطلاقا من ذلك جواز تنفيل بعض الجيش -فردا أو سرية- لمصلحة، وليس المراد هنا بالمصلحة المصلحة الخاصة وإنما المراد المصلحة العامة، والمصلحة رحمة ولا شك، فقوله ﷺ: «من قتل كافرا فله سلبه»[2] رحمة، ولتستبين أكثر فلنقف على سياق الحديث وتمامه، فعن أنس: أن النبي ﷺ قال يوم حُنَيْن: «من قتل رجلا فله سلبه» فقتل أبو طلحة عشرين رجلا وأخذ أسلابهم»، فقوله ﷺ كان محفزا لأبي طلحة وغيره من الصحابة على الإثخان في المشركين ونيل أسلابهم، ومعلوم أنه يوم حنين حدث فرار جماعي لجيش المسلمين في

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقديم وتحقيق: عبدالقادر شيبة الحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١/٢٠٠١م، الجزء السادس، ص٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أنس بن مالك، كتاب الجهاد، باب في السلب يعطى للقاتل، (٢٧١٨). وقال هذا حديث حسن، وصححه الألباني.

الجولة الأولى، ولم يثبت إلا النبي ﷺ، «ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة كانوا يحيطون به، فيهم العباس، وأبوسفيان، وأبو بكر، وعمر، وعلي»[1]، وفي الجولة الثانية استجمع المسلمون قواهم بعد أن صرخ فيهم العباس فانهزم المشركون و»قد أمر النبي ﷺ بتعقب الفارين وقتلهم لإضعاف شوكتهم حتى لا يعودوا إلى الاجتماع والقتال وهنا أباح للقاتل سلب المقتول»[2]. فقتل المشرك المحارب رحمة، وإضعاف شوكتهم رحمة، لأنه لو لم يكن ذلك فمالوا على المسلمين فقتلوهم وأسروهم لكان ذلك عذابا، كما أن الهزيمة تدخل على قلب الصحابة الهم والغم والحزن، والنصر يدخل على قلوبهم الفرح والسرور وذلك رحمة، بل وتعذيب المشركين بأيدي المؤمنين فيه شفاء لصدورهم وذلك رحمة؛ قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤].

وثبت أنه ﷺ جمع لسلمة بن الأكوع في بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس، فأعطاه أربعة أسهم لعظم غنائه في تلك الغزوة، فعن سلمة بن الأكوع وذكر قصة إغارة عبدالرحمن الفزاري على سرح رسول الله ﷺ واستنقاذه منه، قال: فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة» قال: ثم أعطاني رسول الله ﷺ سهم الفارس وسهم الراجل فجعلهما لي جميعا»[3]، وثبت أنه أعطى سعد بن أبي وقاص سيفا يوم بدر، فعن سعد بن أبي وقاص قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يوم بدر بسيف فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو، فهب لي هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف ليس لي ولا لك»

(١) السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري، الجزء الثاني، ص٥٠١، وقال عن الحديث رواه ابن إسحاق بإسناد صحيح إلى جابر بن عبدالله أحد شهود المعركة.
(٢) المرجع نفسه، الجزء الثاني، ص٥٠٢.
(٣) أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد، (١٨٠٧).

فذهبت وأنا أقول: يُعطاه اليوم من لم يبل بلائي، فبينا أنا إذ جاءني رسول رسول الله ﷺ فقال: أجب، فظننت أنه نزل فيّ شيء بكلامي، فجئت فقال لي النبي ﷺ: «إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي فهو لك»[1].

هذا على المستوى الفردي أما على المستوى الجماعي فقد ثبت أنه كان يُنَفِّل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة، سوى قسم عامة الجيش، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ بعث سرية قِبَلَ نجد، فخرجت فيها فبلغت سهماننا اثني عشر بعيرا، ونفلنا رسول الله ﷺ بعيرا بعيرا»[2]، وعن حبيب بن مسلمة أن النبي ﷺ نفّل الربع بعد الخمس في بدأته، ونفل الثلث بعد الخمس في رجعته»[3]. والمراد أنه ﷺ إذا بعث سرية وهو خارج للغزو فغنمت فلها الربع، ويشركهم سائر الجيش في ثلاثة أرباعه الباقية، فإن رجع الجيش من الغزو فخرجت سرية فغنمت فلها الثلث من القسمة كل ذلك بعد إخراج الخمس[4]، فتصرفه ﷺ رحمة بكلا الطائفتين من أصحابه لأنه يقوِّي قلوب الشجعان ويبعثهم على الخروج والقتال، وينوبوا عن إخوانهم الضعفاء فيكون رحمة لهم.

ب. تسويته بين الضعيف والقوي في القسمة رحمة:

كان ﷺ يسوي بين الضعيف والقوي، وبين من قاتل ومن لم يقاتل، مادام أنهم قد حضروا المعركة، وقد سبق إلى أوهام بعض الصحابة أن لهم فضلا على ضعفائهم فسارع ﷺ إلى تصحيح الأفهام وإزالة الأوهام

(١) رواه وأبو داود من حديث مصعب بن سعد عن أبيه، باب في النفل، (٣/ ٢٧٤٠)، ورواه مسلم باب الأنفال، (١٧٤٨).
(٢) رواه مسلم كتاب الجهاد والسير، باب الأنفال، (١٧٤٩).
(٣) أخرجه وأبو داود من حديث حبيب بن مسلمة، كتاب الجهاد، باب فيمن قال الخمس قبل النفل، (٢٧٤٩)، وصححه الألباني.
(٤) ينظر: نيل الأوطار: الشوكاني، الجزء التاسع، ص٤٢٥.

فقال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»[١]. وقد قال الناظم: وفي الغنيمةِ الضعيفُ والقويُّومَنْ يقاتلْ وسواهُ يستوِي[٢]

وقد وقع سوء الفهم في أول معركة فاصلة في الإسلام إنها معركة بدر، فعن عبادة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في أثرهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على الغنائم يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو، لستم بأحق منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غِرَّة فاشتغلنا به، فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١] (، فقسمها رسول الله ﷺ على فواق بين المسلمين»[٣]، أي على سواء، وللنسائي زيادة تبين كيف يكون النصر بسبب المستضعفين وهي: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم».[٤]

ولنتصور أثر الرحمة في هذه القسمة السوية علينا إدراك المصالح المترتبة عليها؛ فمنها تأليف القلوب ومن ثم توحيد الصف وإزالة الحقد

(١) رواه البخاري عن مصعب بن سعد، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، (٢٨٩٦).
(٢) الأفنان الندية: شرح منظومة السبل السوية لفقه السنن المروية لناظمها حافظ بن أحمد بن علي الحكمي: زيد بن محمد بن هادي المدخلي، دار علماء السلف للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، الجزء الثالث، ص٥١٢.
(٣) رواه أحمد من حديث عبادة بن الصامت، (٢٢٨٥٢).
(٤) رواه النسائي من حديث مصعب بن سعد عن أبيه، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، (٣١٧٨)، وصححه الألباني.

والكراهية من قلوب الضعفاء تجاه الأقوياء، وطرد وساوس الشيطان عنهم، وتحفيزهم على الخروج في سبيل الله، ولو لتكثير السواد وحفظ المتاع، وكل ذلك له أثره على سير المعارك وتحقيق النصر؛ لأن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا واحدا، ومن أحبه الله رحمة فكانت القسمة بالسوية مجلبة لرحمة رب البرية، وما كان سببا إلى رحمة فهو رحمة، وإن رآه الناس عذابا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف:٤]، ولئن ظن بعض الصحابة أنه من العدل أن يعطى الرجل حسب بلائه العسكري في المعركة فإن النبي ﷺ يدرك أن تحريك سبابه قد يكون أفضل من تحريك دبابة، وأن أنينا من ضعيف بظلمة الليل قد تنهدُّ له الجيوش العاتية فصلى الله عليه وسلم تسليما، فقد كان معلما رحيما.

المبحث السادس
الرحمة بالعصاة والمذنبين والعفو[1] عنهم

للعفو في اللغة «أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على طلبه، ثم يرجع إلى فروع كثيرة لا تتفاوت في المعنى، فالأول: العفو: عفو الله تعالى عن خلقه، وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم فضلا منه، قال الخليل: وكل من استحق عقوبة فتركته فقد عفوت عنه»[2].وقال ابن الأعرابي: «وعفا يعفو إذا ترك حقا»[3]، ومن المعنى اللغوي يمكن أن نصوغ معنى اصطلاحيا فنقول العفو: هو التنازل عن الحق الذي على الغير وإسقاطه تفضلا وترحما»، وقد كان ﷺ أحلم خلق الله وأكثرهم عفوا، كيف لا يكون كذلك وقد أمره ربه بالعفو فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]، قال القرطبي في تفسير هذه الآية «فيه ثلاث مسائل: الأولى: هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: «خذ العفو» دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين»[4]، فلم يكن ﷺ ممن «تستخفه التوافه، ولا تستفزه

(١) من باب عطف السبب على المُسَبَّب، فالرحمة سبب للعفو.
(٢) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، الجزء الرابع، ص٥٦.
(٣) لسان العرب: ابن منظور، ص٣٠٢٠
(٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي،، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، الجزء التاسع، ص٤١٨.

الشدائد، اتسع صدره وامتد حلمه وأناته على ذوي النزق والحمق حتى يلجئهم إلى الحق، فتأنس النفوس له أنس الرياض بالهلال القطر، والساري بطلوع البدر، والمسافر بتعريس الفجر»[1].

كان أصحاب النبي ﷺ أكثر خلق الله تعظيما لحرماته، وبعدا عن معصيته، ومع ذلك لم يخلُ مجتمعهم ممن استهواه الشيطان فقارف بعض الذنوب والمعاصي، خاصة ممن كانوا حديثي عهد بجاهلية، وكان ﷺ بهم رفيقا رحيما يبين لهم شؤم المعصية وأثرها على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، ويحث على الستر والتوبة والأعمال الصالحة التي تمحو السيئة، يعرض عن الجاهل، ويعفو عن المسيء ولو أسلنا الحبر في منهجه ﷺ في تعامله مع العصاة والمذنبين لطال بنا المكث، وليس ذلك المراد بالبحث ها هنا، بل المراد هو عفوه ﷺ على العصاة من أصحابه ﷺ في الغزو والجهاد، وترك المؤاخذة مع القدرة، وهو شيء كثير وعجيب، فإذا كان ﷺ قد عفا عن مشركي قريش وقد آذوه وأخرجوه من أحب البلاد إليه، ومكروا به ليأسروه أو يقتلوه أو يخرجوه، كما أخبر تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠]، فكيف بمن آمنوا به وصدقوه، ومن قتل وأسر المشركين منعوه، لقد امتثل ﷺ أمر ربه بالعفو عن زلات أصحابه رضوان الله عليهم، وسيرته الجهادية تشهد بذلك، وسوف نقتصر على بعض منها.

أ. الرسول يعفو عن مخالفي الأوامر في المعارك:

التزام الجنود بأوامر قادتهم في المعارك أمر عظيم لما في ذلك من أثر مباشر على سير المعارك وتحقيق النصر ودفع الهزيمة، ولذلك قلمّا

(١) الإكليل في حلم وعفو وصفح الخليل: علي عبد الخالق القرني، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة، د-ط، د-ت، ص٢٧-٢٨.

ينجو المخالف من العقوبات القاسية خاصة إذا تسببت في خسائر بشرية ومادية كبيرة كما هو الحال في الجيوش الحديثة، بل قد يصل الأمر إلى حد القتل والاتهام بالخيانة العظمى، ولكن المتتبع لسيرة النبي ﷺ تأخذه الدهشة، ويتملكه العجب والإعجاب من حلمه وعفوه عن هذه الفئة، فقد خالف الرماة أمره يوم أحد وتركوا موقعهم، فعن البراء بن عازب قال: جعل النبي ﷺ على الرَّجَالة يوم أحد -وكانوا خمسين رجلا- عبدالله بن جبير فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزَمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشددن قد بدت خلاخلهم وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبدالله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم فل يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين...»[1]، ورغم تلك الأوامر الصارمة المشددة بعدم إخلاء الموقع إلا أنهم ما إن رأوا انكشاف جيش المشركين حتى صاحوا الغنيمة الغنيمة، وعصوا أوامر أميرهم عبدالله بن جبير وهو يذكرهم بأوامر النبي ﷺ، فلم يلتفتوا إليه ونزلت أغلبية الرماة، وكانت غلطة فظيعة «قلبت الوضع تماما، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سببا في مقتل النبي ﷺ»[2]. وتبين رواية مرسلة للسدي ما وقع بعد نزول الرماة، فقد رأى خالد بن الوليد وكان على خيَّالة المشركين، الفرصة سامحة فالتفت حول المسلمين، فأباد عبدالله بن جبير وأصحابه الذين

(١) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب السير والمغازي، باب مايكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، (٦/٢٩٣٦).
(٢) الرحيق المختوم: المباركفوري، ص٢٠٧.

بقوا معه على الموقع، ودارت الدائرة على المسلمين فقتل منهم سبعون، ورغم استبسال بعض الصحابة في الدفاع عنه ﷺ فقد كسرت رباعيته، وشُجَّ في وجهه، فجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الإسلام»[1].

وجملة الأمر «أن الهزيمة وقعت بسبب مخالفة الرماة لقول النبي ﷺ «لا تبرحوا مكانكم»[2] وغلبت عليهم أثارة من حب الدنيا وتنادوا بالغنيمة، وتزداد المخالفة فظاعة إذا علمنا أنهم قبل سنة فقط في بدر علَّمهم النبي ﷺ كيف تُقَسَّمُ الغنائم، وأعطى كل ذي حق حقه لا فرق بين القوي والضعيف، ومع ذلك لم نعثر في سيرته العطرة ﷺ على أي عقوبة لهؤلاء الرماة، ولو بكلمة قاسية أو نظرة جافية، ولو حدث شيء من ذلك لنقل إلينا، والأعظم من ذلك أن الصحابة يوم أحد انهزموا وفرّ بعضهم، فعن أنس قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ...»[3]، قال ابن حجر: «والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق: فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة فما رجعوا حتى انفض القتال وهم قليل... وفرقة صاروا حيارى لمَّا سمعوا أن النبي ﷺ قتل، فصار غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه، أو يستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ[4].

وقد قص القرآن خبر فرارهم والعفو عنهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران:١٥٥]، ومع ذلك لم يعاقبهم ﷺ،

(١) رواه البخاري (فتح الباري) معلقا، كتاب السير والمغازي، باب إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، ج٧، ص٤٢٢.
(٢) فتح الباري: ابن حجر، الجزء السادس، ص١٨٩.
(٣) رواه البخاري (فتح الباري)، كتاب المغازي، قوله تعالي» إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا» الآية(٧/ ٣٩١٤).
(٤) فتح الباري: ابن حجر، الجزء السابع، ص٤١٩.

بل عفا عنهم ودعا لهم بالرحمة، فبعد أن انتهى من دفن الشهداء صف أصحابه فأثنى على ربه فقال: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت ولا مضل لما هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق»[1]، ثم ركب فرسه ورجع إلى المدينة، ولو طرحت القضية على المحللين العسكريين في هذا الزمان، لقالوا: إن العقوبة لآتية لا محالة والمسألة مسألة وقت فقط، ولكن هيهات إنه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين.

وذكر أهل السير أنه ﷺ لما رجع إلى المدينة بلغه أن قريشا تريد العودة لتستأصل المسلمين في عقر دارهم، فما كان منه ﷺ إلا أن انتدب أصحابه للخروج، واشترط أن لا يخرج معه إلا من خرج يوم أحد، سوى جابر بن عبدالله لمَّا أخبره أن أباه خلفه عن أخواته، فلم يشهد أحدا[2]. وفي هذا الموطن يتوقع الخبراء العسكريون أدنى عقوبة قد ينالها الرماة خصوصا، والفارون من الزحف عموما، الحرمان من الخروج تأديبا لهم على ما اقترفوه، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، وهذا هدية ﷺ مع الفارِّين يوم

(١) رواه أحمد في المسند (٣٢٤/٣)، والحاكم في المستدرك (٢٣/٣)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ينظر: السيرة النبوية الصحيحة، العمري، الجزء الثاني، ص٣٩٤.

(٢) ينظر: صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي، تقديم: عمر سليمان الأشقر، ومراجعة: همام سعيد، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٥/١٩٩٥م، ص٢٣٦.

الزحف وهو من كبائر الذنوب، وقد رأينا ذلك أيضا يوم حنين في الجولة الأولى ولم نقف على أي عقوبة لهم، بل رأيناه يغدق عليهم من العطاء لهم، ويعفو عليهم رحمة بهم، فصلى الله عليه وسلم تسليما.

ب. الرسول يعفو عن حاطب بن أبي بلتعة:

كان من شروط صلح الحديبية أنّ لكل قبيلة الحرية في التحالف مع من شاءت، فتحالفت خزاعة مع محمد ﷺ، وتحالفت بنو بكر مع قريش، وكان بين هاتين القبيلتين ثارات قديمة، فانتهزت بنو بكر الفرصة فأغارت على خزاعة ليلا بماء لهم يقال له الوتير، فأصابوا منهم رجالا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقيل بل شارك بعضهم في القتال كسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وكان يفترض أن قريشا تمنع هذا الاعتداء وتستنكره، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، فاستنصرت خزاعة حليفها محمدا ﷺ، فوفّى بالعهد[1]، وتهيأ للغزو وأخفى الأمر عن أصحابه رضي الله عنهم حتى يباغت قريشا فلا تأخذ أهبتها للقتال، وتستسلم دون نزال تعظيما لبلد الله الحرام مكة.

ولكن حادثا غريبا وقع في هذه الفترة، وهو أن رجلا من أهل السابقة تطوع بإرسال كتاب إلى قريش، يخبرهم فيه بأن محمدا سائر إليهم، إنه حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه. رواه البخاري عن عُبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت عليا يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها، قال: فانطلقنا تهادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقِنَّ الثياب، قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ،

(١) ينظر: الرحيق المختوم، المباركفوري، ص٣١٥.

فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة -إلى أناس بمكة- يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: «يا حاطب، ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرءا ملصقا في قريش -يقول: كنت حليفا- ولم أكن من أنفسنا، وكان من معك من المهاجرين، من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم»، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطَّلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة:١]. فيا للعجب بدري يتجسس لصالح قريش ضد من؟ ضد رسوله محمد ﷺ، تطوعا واختيارا، أليس في ذلك تحريضا صريحا على محمد ﷺ وصحبه؟ أليس في ذلك حربا على الله ورسوله؟ أليس في ذلك نصرة للشرك وأهله؟

إنها الكبيرة العظيمة، وأمارة النفاق التي تستدعي ضرب الأعناق، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نعم إن التجسس جريمة كبيرة لما تفضي إليه من آثار سلبية على الجيش المتجَسَّسِ عليه، كالقتل والأسر والهزيمة في النهاية، وأي هزيمة إنها هزيمة جيش محمد ﷺ، وليس على الأرض جيش غيره يقاتل في سبيل الله حينئذ. إن رجلا (جاسوسا) يكون سببا في هزيمة جيش يقوده محمد ﷺ لهو أفضل جاسوس في عيون العدو يستحق التكريم والرتب العالية، ولهو أعدى عدو في نظر جند محمد ﷺ، يستحق ضرب العنق دون محاكمة، لكن الأمر مع محمد

ﷺ يختلف تماما، خاصة مع أهل السابقة من أصحابه، فيسأله عن سبب إقدامه على هذا الفعل الشنيع والخطأ الفظيع، فيجيبه بكل صدق، فصدّقه الصادق المصدوق، ولو كذب لكذبه لأن الذي أخبره بالكتاب، سيخبره بما يكن حاطب، وكف عنه عمر بن الخطاب الذي طالب بقتله، وذكرّه بماضيه الشريف وجهاده المنيف. «لقد شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد، فعفا عنه الرسول وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه»[1]. «وبهذا التقدير السمح علمنا الإسلام أن لا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حينا بعد أن أصابوا طويلا»[2].

لقد علمنا ﷺ أن الحسنة تمحو السيئة، وأن الكبيرة العظيمة تمحوها الحسنة الكبيرة، قال ابن قيم الجوزية في واقعة حاطب: «وفيها أن الكبيرة العظيمة ممّا دون الشرك، قد تُكَفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجَسُّ من حاطب مُكَفَّرًا بشهوده بدرا، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة، وتضمنته من محبة الله لها، ورضاه بها، وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسّ من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الضعيف»[3]. وهذا هديه ﷺ مع أصحابه ينقب لهم عن الأعذار فيعفو عنهم، فلم» يكن وهو القائد الرحيم بقاتل رجلا له سابقة في الإسلام، فشيمته الوفاء والبر بكل من ناصره»[4]، وقد نقل الشوكاني لفظ كتاب حاطب ومحتواه فقال: «وذكر يحيى بن سلام في «تفسيره» أن لفظ الكتاب» أما بعد يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فـوالله لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم

(١) الرسول القائد: محمد شيت، ص٢٢٦.
(٢) ص٤٠٨. فقه السيرة: محمد الغزالي
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية، الجزء الثالث، ص٤٠٨.
(٤) أثر معاملة الرسول ﷺ في نشر الدين الإسلامي: يحيى بن عبدالله البكري، الشهري، ص٩٨.

والسلام»[1]. فلو صح هذا اللفظ لكان كافيا للعفو عنه لما فيه من تيقنه من نصر محمد ﷺ، وأنه وعد الله، وهو مُنجَز لا محالة، بل وفيه ترهيب للمشركين، ودعوة للدخول في دين محمد المرسل رحمة للعالمين.

(١) نيل الأوطار: الشوكاني، الجزء التاسع، ص٥٠٨.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث إلى الخلق بالرحمات، فبعد هذه الرحلة الماتِعة في بحر خلق رحمته ﷺ بأصحابه في الجهاد والغزوات، آن الأوان لنقف على أهم النتائج والتوصيات وهي:

النتائج:

١. الرحمة أصل من أصول الأخلاق، وشعبة من شعب الإيمان، أصلها ثابت في القلب، وثمارها ظاهرة في السلوك والأعمال، وهي من صفات الكمال، وهي خلقه ﷺ، فهو أرحم الخلق أجمعين بشهادة رب العالمين، وصحبه الميامين، وأعدائه الشانئين.

٢. الرحمة عند النبي ﷺ منهج حياة، فلم تكن مرتبطة بمواقفَ معينة، أو مرحلة معينة من سيرته ﷺ، كأن تقتصر على العهد المكي دون المدني؛ بدعوى أن الجهاد لا يتناسب مع خلق الرحمة بل يتطلب الشدة، فحتى الشدة في موضعها رحمة وإن رآها الحاقدون قسوة وغلظة، فما أحوج الأمة اليوم إلى تحويل خلق الرحمة إلى منهج حياة، والتأسي بخير الخلق بدل سرد السيرة

وروايتها مبتوتة عن الواقع، وسيرته الجهادية ﷺ شاهدة على ذلك، ولكنّ الظالمين يجحدون.

٣. منهجه ﷺ في تأصيل الأخلاق ونشرها يقوم على القدوة الحسنة، فهو المثل الأعلى لأصحابه في السلم والحرب، فلا يخالف فعلُه قولَه، ولا يأخذهم بالعزائم ليستأثر هو بالرخص، ولا يدفعهم إلى المهالك، لينعم هو بالعافية دونهم، يغض الطرْف حتى عن بعض المنافقين لا تأليفا لهم فحسب، ولكن دفعا للمفسدة الراجحة؛ مخافة أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، فيكون ذلك عقبة في طريق الدعوة إلى الله، يتنازل عن بعض حقوقه تأليفا للقلوب وتقديما لحق الله تعالى في دعوتهم، فلم ينتقم لنفسه قطّ، بل كان ينتقم عندما تنتهك حدود الله تعالى.

٤. تجلت مظاهر رحمته ﷺ بأصحابه في الجهاد من خلال تضرعه ودعائه لهم بالثبات والنصر، وتخولهم بالموعظة، وتحريضهم على الجهاد، وتذكيرهم بما أعد الله لهم من الأجر العظيم، وكذلك التخفيف عليهم في الصلاة، فسنّ لهم صلاة عرفت بصلاة الخوف، وصبره على جفاء الأعراب وغلظتهم والعفو عنهم، وخصّهم بالعطاء تأليفا لقلوبهم، عجلَّ بقسمة الغنيمة رحمة، وأخرها تارة رحمة، قسم بينهم بالسوية، وخصّ بالسلَب أهل الغناء، وبالنفل السرية، عفا عن العصاة ومخالفي الأوامر والفارين يوم الزحف، وكيف لا يعفو وقد عفا عنهم رب البرية، عفا عن حاطب وقد أفشى سره ومسيره إلى مكة بعد صلح الحديبية، فلم ينس له خروجه يوم بدر غازيا.

٥. لذلك وجب على الأمة الذب عن نبيها ﷺ، ورد الافتراءات التي

يبثونها زورا وبهتانا، وبطريقة شرعية ومنهجية تراعى فيها المصلحة، بعيدا عن الانفعالات العاطفية التي قد تضر أكثر مما تنفع، كل بحسب قدرته وموقعه. وإني أرى هذا المؤتمر المبارك يندرج ضمن هذا المسعى، ومنه التعريف بأخلاق النبي ﷺ وشمائله ومنها خلق الرحمة، فجزى الله القائمين عليه رحمة منه واسعة، وجعلني بها منتفعا، وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة.

التوصيات:

١. الاستمرار في عقد المؤتمرات والندوات التي تبرز جوانب الرحمة في سيرته عموما، وسيرته الجهادية خصوصا، وبيان كيف كان يتعامل ﷺ مع العدو والصديق، لأن معظم الحملات التي تريد النيل من مقام النبوة، تنطلق من هذا الجانب من حياته ﷺ. وقد رأينا تهكم وسخرية الصحف الدنماركية والنرويجية والفرنسية، ودليل ذلك أن تلك الصور المسيئة لم تصور حال النبي ﷺ وهو يكابد أذى المشركين بمكة أيام الاستضعاف. ولكن هيهات فإن الله إذا أراد نشر فضائل نبيه بين أتباعه وأعدائه بعث أشقاها.

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُوِّيَتْ أتاحَ لها لسانُ حَسُودٍ.

٢. ترجمة أعمال المؤتمر إلى لغات مختلفة - على الأقل اللغتين الإنجليزية والفرنسية-، وطبعها على شكل كتيبات صغيرة، كأن يشتمل كل كتيب على بحث واحد تيسيرا ورحمة بالقارئ، ونشرها في أوروبا وأمريكا وآسيا، لعل الله يهدي بها من يشاء من خلقه، أو يكبتهم فلا يتعرضوا لخير خلق الله بأذى.

٣. التغطية الإعلامية المباشرة لوقائع المؤتمر، وبلغات مختلفة؛ على

فضائيات عربية وعجمية.

٤. التجديد في عرض السيرة النبوية، وذلك من خلال التعريف بأخلاقه ﷺ، وعدم الوقوف عند حدود العرض التاريخي، ويحبذُّ إفراد كل خلق ببحث خاص حتى يُوَفَّى حقّه من البحث، ويكون ذلك سبيلا لموسوعة شاملة تترجم إلى ما تيسر من لغات العالم.

٥. حثّ الذين يجيدون اللغات الأجنبية على المشاركة في المنتديات الأجنبية على الشابكة، وإرشاد المتواجدين فيها إلى سيرة الرسول ﷺ، وتعريفهم بأخلاقه، ولو خُصَصَّت فرق لذلك لكان حسنا، وذلك من باب توظيف وتطويع التقنيات الحديثة في الدعوة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

فهرس المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم برواية حفص.
٢. معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق وضبط: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د-ط، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٣. ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، د-ط، د-ت.
٤. المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: سيد محمد الكيلاني، د- ط، د-.
٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير: المُناوي، درا المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩١-١٩٧٢م.
٦. الكليات في المصطلحات والفروق اللغوية: الكفوي، قابله: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٧. كتاب التعريفات: الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٨٥م.
٨. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف: صالح بن عبدالله بن حميد، عبدالرحمن بن ملوّح، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، العربية، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
٩. كتاب الدعاء: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دراسة وتحقيق: محمد سعيد بن محمد حسن البخاري، دار البشائر الإسلامية، د-ط، د-ت.

١٠. تصحيح الدعاء: بكر بن عبدالله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
١١. تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه: أحمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، د-ت.
١٢. السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية: أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
١٣. الرحيق المختوم: المباركفوري، دار ابن خلدون، د-ط، د-ت.
١٤. صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر: محمد بن صامل السلمي وآخرون، الطبعة الأولى١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
١٥. تأليف النبي ﷺ للقلوب وأثره في الدعوة إلى الله: إبراهيم بن صالح بن صابر المغذوي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية.
١٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقديم وتحقيق: عبدالقادر شيبة الحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١/٢٠٠١م.
١٧. الطريق السوي في اقتفاء أثر النبي ﷺ: عبداللطيف بن محمد بن خالد آل موسى، مركز الفجر للإعلام، غزة، فلسطين، الطبعة الأولى، ١٣٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٨. الموافقات: أبو إسحاق الشاطبي، تقديم: بكر بن عبدالله أبوزيد، ضبط وتعليق وتقديم: أبوعبيدة مشهور بن حسن، آل سليمان، دار ابن عفان، الخُبَر، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: عبدالله بن عبدالعزيز عقيل، ومحمد بن صالح العثيمين، اعتناء وتحقيق ومقابلة: عبدالرحمن معلاّ اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥/هـ-١٩٩٤م.
٢١. فقه السيرة: محمد الغزالي، خرّج أحاديث الكتاب: محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، الطبعة السادسة، ١٩٦٥م.
٢٢. نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن القيم، الرياض، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٢٣. موسوعة الأعمال الكاملة لابن القيم، جامع الفقه،: جمع وتوثيق وتخريج: يسرى السيد محمد، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٢٤. الدرر السنية في الأجوبة النجدية: جمع عبدالرحمن بن قاسم العاصمي القحطاني النجدي، من مطبوعات دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.
٢٥. منّة المنعم في شرح صحيح المسلم: صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٦. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي،، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
٢٧. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة،: البيهقي، توثيق

وتخريج وتعليق: عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

٢٨. البداية والنهاية: ابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، د-ط، د-ت.

٢٩. أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين بن الأثير أبو الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق: محمد العوض وأحمد عبدالموجود، قدم له وقرّظه: محمد عبدالمنعم البري وعبدالفتاح أبو سنة، وجمعه طاهر النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د-ط، د-ت.

٣٠. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبدالبر، صححه وخرّج أحاديثه: عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣١. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، مهدي رزق الله أحمد، مطبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٣٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي، إشراف: بكر عبدالله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، د-ط، د-ت.

٣٣. شرح عمدة الأحكام: سعد بن ناصر بن عبدالعزيز الشتري، اعتنى به: عبدالناصر بن عبدالقادر البشبيشي، كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

٣٤. فقه الإسلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام: الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبدالقادر شيبة الحمد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، د-ت.

٣٥. كشف اللثام شرح عمدة الأحكام: السفاريني، تحقيق وضبط: نور الدين طالب، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٣٦. طرح التثريب في شرح التقريب: الحافظ العراقي وولده، وليّ الدين أبو زرعة العراقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د-ط، د-ت.
٣٧. الرسول القائد: محمود شيت خطاب: مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٦٠.
٣٨. أثر معاملة الرسول ﷺ في نشر الدين الإسلامي: يحيى بن عبدالله البكري الشهري، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، أثناء النشر الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
٣٩. كتاب الطبقات الكبرى: محمد بن سعد الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
٤٠. مفتاح دار السعادة: شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، د-ط، ١٩٩٨م.
٤١. فيض القدير شرح الجامع الصغير: المُناوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ، ١٩٧٢م.
٤٢. الأفنان الندية: شرح منظومة السبل السوية لفقه السنن المروية لناظمها حافظ بن أحمد بن علي الحكمي: زيد بن محمد بن هادي المدخلي، دار علماء السلف للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٤٣. الإكليل في حلم وعفو وصفح الخليل: علي عبدالخالق القرني، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة، د-ط، د-ت.
٤٤. صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي، تقديم: عمر سليمان الأشقر، ومراجعة: همام سعيد، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٥/١٩٩٦.